مدينة فاس تخلّد 1200 سنة من الإشعاع

فاس– تحقيق: نورالدين سعودي
تصوير: نجيب خليفة

حاضرة فاس، العاصمة الروحية والعلمية والثقافية للمملكة المغربية، والوجه البارز للحضارة المغربية–الأندلسية بالغرب الإسلامي، والتي تعيش هذه السنة على إيقاع الإحتفال بمرور 1200 سنة على تأسيسها وعلى نشأة المغرب كدولة متميزة ومستقلة، حظيت باستمرارية إلى يومنا هذا.

فاس، المدينة التاريخية التي تشهد بعراقة الدولة المغربية وعمقها الحضاري كانت ولازالت مشعلا للعطاء الثقافي والروحي ولتلاقح وتفاعل الحضارات. بها توجد أقدم جامعة في العالم، جامعة القرويين، ومدينتها العتيقة المصنّفة ضمن التراث العالمي لليونيسكو سنة 1981 تعد أكبر منطقة خالية من السيارات والعربات في العالم. وهي حاليا، ثالث مدن المملكة المغربية من حيث عدد السكان (حوالي 2 مليون نسمة).

تحيط بهذه المدينة البديعة غابات الأطلس ومزارع الحبوب والكروم والزيتون والبرتقال والتين والرمان، مما يعطي لوحات خضراء رائعة الجمال تريح البصر وتدخل الطمأنينة على النفوس. كما توجد على مقربة منها عدة مواقع سياحية متميزة، نذكر منها مدينة إفران الرائعة (المشهورة بمحطة التزلج على الجليد وبغاباتها وحدائقها الخلابة) ومحطتي السياحة العلاجية، سيدي حرازم (الخاصة بأمراض الكلي) ومولاي يعقوب (الخاصة بالأمراض الجلدية).

النشأة والموقع

إن الموقع الذي أنشئت عليه مدينة فاس المتميز في سهل "سايس" ذي الأراضي الخصبة والمياه الوافرة والذي تحده وتحميه من الشمال التلال "الريفية" (نسبة لسلسلة جبال الريف الواقعة شمال المغرب) ومن

أحد الأبواب السبعة لجامعة القرويين

One of seven gates of Al-Quaraouiyyne

الجنوب جبال الأطلس المتوسط، قد شهد منذ العهود الغابرة استقرار مجموعات بشرية أمازيغية (بربرية)، ومر منها الرومان (الذين أسسوا غير بعيد عنها مدينة وليلي) والوندال و"الفاتحون" المسلمون.

إلا أن هذا الموقع سيعرف تحولا جوهريا في أواخر القرن الثامن الميلادي، حينما اختار إدريس بن عبد الله الكامل، أحد أحفاد الإمام علي (رضي الله عنه) الهارب من بطش العباسيين، الاستقرار على الضفة اليمنى لنهر فاس، معلنا بذلك تأسيس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (780–1055م) باستقلال عن الخلافة العباسية.

المدينة الفعلية، بقصرها وجامعها وسوقها، أنشأها ابنه إدريس الثاني، على الضفة اليسرى، سنة 809 ميلادية الموافق لـ 182 هجرية واتخذها عاصمة لمملكته. وإثر انتفاضة قرطبة، سنة 818م، قدم إليها واستقر بها أندلسيون. كما نزل بها القيروانيون (نسبة لمدينة القيروان التونسية) بعد أن طردهم الأغالبة (دولة حكمت تونس وجزء من الجزائر وليبيا 800–909)، وكلاهما أحضر حمولته المعرفية وخبرته المهنية (تجارية وحرفية) وتجاربه في الحياة الحضرية. بهذه المؤهلات البشرية، وبحكم موقعها الإستراتيجي على الطريق الرابطة بين سجلماسة وشمال المغرب، بالإضافة إلى إنشاء جامع القرويين (نسبة للقيروانيين) وملحقاته التجارية، في القرن التاسع، شهدت فاس تطورا اقتصاديا وعمرانيا منقطع النظير، لتصبح أبرز مركز إشعاع ثقافي وديني وتجاري على المستوى المغاربي.

وإن اختار المرابطون (1055–1147) والموحدون (1147–1269) الذين أتوا بعد الأدارسة مدينة مراكش عاصمة لهم، فإنهم لم يهملوا فاس، حيث عمل السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين على توحيد المدينة عبر سور جديد وقام ابنه وخلفه على توسيع وإضفاء جمالية على جامع القرويين الذي أضحى من أكبر المراكز الدينية في العالم الإسلامي.

ومع اعتلاء المرينيين (1269–1529) الحكم، عرفت فاس انطلاقة متميزة بإنشائهم

ضريح إدريس الثاني The mausoleum of Idriss II

لمدينة جديدة سميت "فاس الجديد"، مقابل "فاس البالي"، سنة 1276 وأصبحت عاصمة لهم. وتميزت هذه "المدينة الجديدة" بانتظام بناياتها وأزقتها وبإنشاء "الملاح" كحي خاص باليهود في القرن 14م.

وبنى المرينيون عددا من المساجد والمدارس نذكر منها المسجد الكبير، ومسجد الحمراء والمدرسة البوعنانية ومدرسة دار المخزن، ومدرسة الصهريج ومدرسة العطارين.

بعد وفاة السلطان المريني أبي عنان سنة 1359 دخلت مدينة فاس في مرحلة تراجع خاصة مع اتخاذ السعديين (1529م–1654م) مدينة مراكش عاصمة لهم.

ولوضع حد لانتفاضات أهل المدينة وإحكام السيطرة عليها، أمر السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي ببناء قلعتين منيعتين بالربوتين المهيمنتين على شمال وجنوب المدينة، وقام بتدعيم أجزاء عديدة من أسوارها. وفي محاولة للتقرّب من أهل فاس، سهر على الإعتناء بجامع القرويين وأمر بتزيينه بحوضين مائيين بديعي الزخرفة أقيما بجانبي الصحن.

ونتيجة لتنافس أبناء المنصور السعدي على العرش وانقسام سكان فاس، عمت الفوضى المدينة، إلى أن تمكن السلطان العلوي الرشيد من دخول المدينة سنة 1666م وأعاد إليها أمنها واستقرارها. فقام ببناء قنطرة

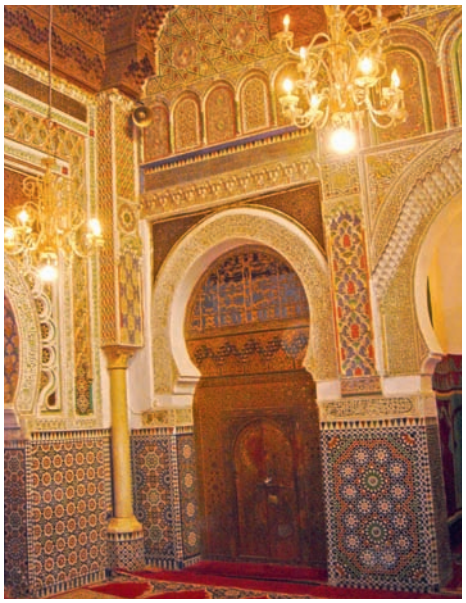

ضريح إدريس الثاني The mausoleum of Idriss II

سبو شرق المدينة، ورمم قنطرة الرصيف على وادي فاس، وشيّد قلعتين غرب المدينة ومدرسة الشرّاطين. أما خلفه السلطان إسماعيل (1672م–1727م)، فقد اتخذ مدينة مكناس المجاورة عاصمة له. فكان على فاس انتظار عهد السلطان محمد ابن عبد الله (1757م– 1790م (وخلفائه، لكي تستعيد مكانتها كعاصمة للملكة وتشهد تشييد معالم عمرانية متعددة من مساجد (الرصيف وباب الجيسة والسياج) ومدارس ودار الماكنة (مصنع الأسلحة). ومع فرض

الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912م، اتخذت الرباط عاصمة للبلاد، بينما أصبحت فاس الحاضرة العلمية والدينية والثقافية للمغرب، والوجه البارز للحضارة المغربية_الأندلسية بالغرب الإسلامي.

المناطق الأثرية

تحتفظ فاس بالعديد من الآثار الدالة على مختلف الحضارات الإسلامية التي توافدت عليها، مثل السور وبواباته الإثنتي عشر (باب محروق، باب الدكاكين، باب المكينة، باب أبي الجنود، باب البرجة، باب السمارين، باب جبالة، باب الجيسة، باب سيدي بوجيدة، باب الخوخة، باب زيات، باب الحديد) الذي شيد في العصر المريني، وكلها أبواب بأقواس ونقوش وزخارف رائعة الجمال.

كما لازالت بالمدينة الكثير من البنايات القديمة ذات الطراز المعماري الأندلسي (يقدر عددها بحوالي عشرة آلاف) واقفة شامخة ضد عوامل الزمن، وهي مكوّنة من طابقين ومكسوة بفنون الفسيفساء الجميلة بأبوابها المزخرفة والحدائق المحيطة بها والتي تتخللها القنوات المتدفقة والنافورات والسقايات البديعة الجمال.

وعرفت فاس أيضا بالمارستانات العديدة لعلاج المرضى، وأشهرها "مارستان فرج"، نسبة إلى الطبيب المشهور فرج الخزرجي، والذي أدخل الموسيقى كوسيلة للعلاج.

كما تعددت مدارس فاس التي تخرّج منها الكثير من العلماء العرب المشهورين مثل مدرسة الصفارين التي بناها أبو يوسف المريني سنة 678 هـ/1280م، والمدرسة المرينية التي أسسها السلطان أبو عنان المريني سنة 756هـ- 1355م، والمدرسة المصباحية التي أسسها أبو الحسن سنة 743هـ- 1343م.

جامع القرويين

وتحتضن فاس 222 مسجداً عتيقاً هي حصيلة توالي الحضارات الإسلامية عليها، أشهرها جامع القرويين وجامع الأندلس وجامع الحمراء ومسجد الرصيف.

جامع القرويين أسسته فاطمة بنت محمد

مسجد الشربليين
Sharbalieen

باب الشماعين
Al-Shama'in Gate

جامعة القرويين
Al-Quaraouiyyne

باب أبو الجنود من أجمل أبواب فاس Boujloud gate

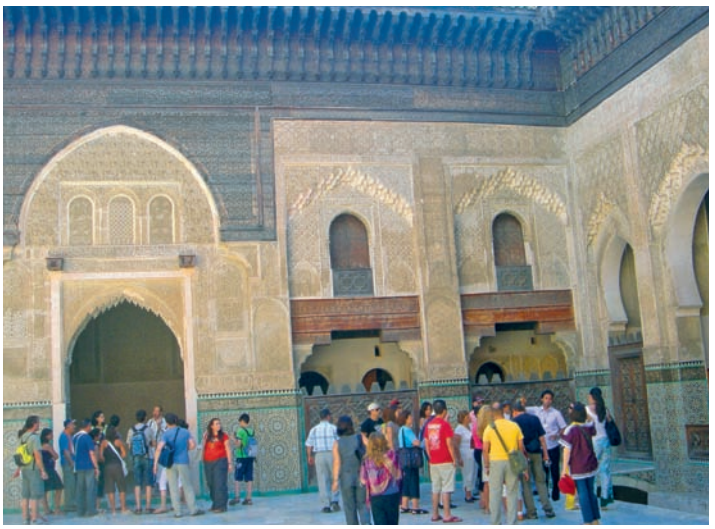

المدرسة البوعنانية Bouanania School

الفهري عام 245هـ - 859م، بعد إحدى وخمسين سنة من بناء المدينة، ليصير جامعاً وجامعة علمية على مدى ألف سنة تقريباً، لهذا تعتبر جامعة القرويين أقدم الجامعات الثقافية في العالم، كما تعتبر مساعدة على تكوين الشخصية والهوية الإسلامية والمحافظة على اللغة العربية من خلال مناهجها التي جمعت ما بين علوم الدين وعلوم الدنيا، فوصل إشعاعها إلى العالم العربي ومنه إلى مختلف ربوع أوروبا.

وقد درس بها الكثير من علماء الغرب والعرب المشهورين، من بينهم الفرنسي جلبرت دوريلك الذي شغل منصب البابا من عام 999 إلى 1003م تحت اسم سيلفستر الثاني والذي عرف الصفر العربي في علم الحساب الذي تعلمه، لينشره بعدها في أنحاء أوروبا، والعلامة ابن خلدون المؤرخ ومؤسس علم الاجتماع، والطبيب والفيلسوف المشهور موسى بن ميمون الذي رحل إلى الشرق ليصير طبيب صلاح الدين الأيوبي، ولسان الدين بن الخطيب، الشاعر والأديب الأندلسي. كما تردد عليها الشريف الإدريسي وابن زهر.

وللمدينة مكانة خاصة لدى مسلمي جنوب غرب إفريقيا كما يشهد على ذلك ضريح الولي الصالح أحمد التجاني (القرن 12م) مؤسس الطريقة التجانية الذي يستقطب سنويا الآلاف من الأفارقة الذين يحجون لزيارته والتبرك به.

الاحتفالات

انطلقت مراسيم الاحتفال بمرور 12 قرنا على تأسيس مدينة فاس بتظاهرة يوم السبت 5 نيسان/أبريل بساحة باب أبي الجنود عرضت خلالها مشاهد استعراضية وصور فنية مركبة لخصت أهم محطات تاريخ المغرب الحافل بالأمجاد والذي ساهمت فيه وانصهرت من خلاله الروافد الأمازيغية والعربية والإسلامية والأندلسية والصحراوية والإفريقية.

وتلت ذلك عدة تظاهرات متنوعة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مهرجان "المغرب المؤنث" في آيار/مايو تم فيه الاحتفال بالمرأة من خلال ندوة دولية عن تاريخ المغرب النسائي، و"عيد البارود" وهو عرض للفروسية قدمته فرقة سفنتازيا" المكوّنة حصرا من شابات مغربيات أبين إلا أن يقتحمن هذا المجال الرجولي، ومعرض للأزياء يستحضر تاريخ اللباس النسائي المغربي الشهير بجماليته وتنوعه البديع.

وانطلقت في يوليو/تموز "قافلة التاريخ"، التي ستجوب الجهات 16 للمملكة، وهي عبارة عن "جامعة القرويين متنقلة" ستحط رحالها لمدة أسبوع في كل مدينة من أهم المدن المغربية وستمكن المواطنين من إعادة تملك تاريخ بلادهم المجيد والغني سياسيا، ثقافيا، فنيا، علميا ورياضيا.

ومن خلال الإحتفال بالذكرى 1200 لتأسيس مدينة فاس، يطمح المغرب استحضار تاريخ كان نموذجا لتآلف أجناس بشرية متنوعة وتعايشت خلاله أديان وأقوام في تجانس وسلام. ■

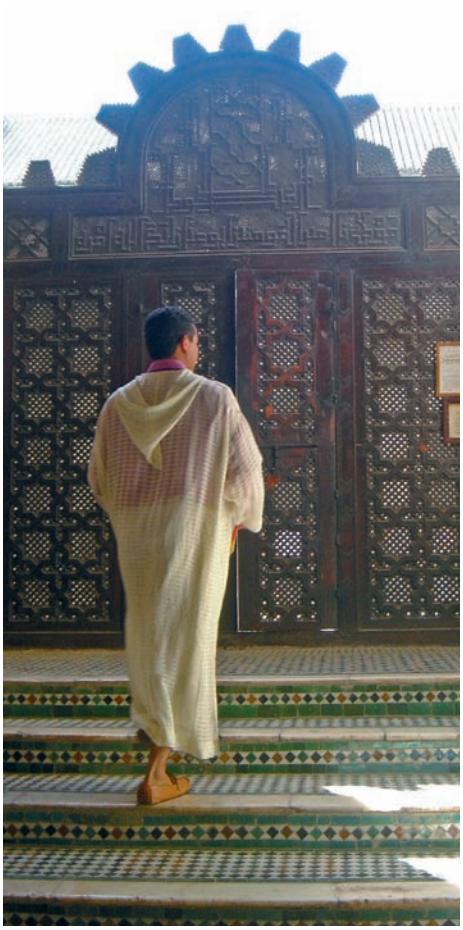

المدرسة البوعنانية Bouanania School